مجلة الدراسات الإسلامية واللغة العربية
Journal of Islamic studies and Arabic Language, Vol.3, Issue 1, May 2024
ISSN: 2791-2310 Print
ISSN: 2791-2329 Online

نظرية أبي سليمان الخطابي في إعجاز القرآن الكريم: دراسة موضوعية

مرتضى زكريا
طالب الدكتوراه بجامعة ولاية كوارا مليتي نيجيريا
zakariyahmurtado@gmail.com
08133092363

و

جامع سعد الله
المحاضر بجامعة الحكمة إلورن نيجيريا
09061139740

ملخص

كان القرآن الكريم معجزة كبرى لبعثة النبي تحدى الأنام وأعجز الأقاصي والأداني عن إتيان مثله قديما وحديثا، وتعتبر الإمام الخطابي أحد المدققين من أعلام البلاغة الذين لهم قدم راسخة في جميع علوم البلاغة العربية، ولم يأل جهد ولم يقصر في إثر الحقل الإعجاز القرآني بإنتاجاته الرائعة الرافعة الخالدة، وتهدف هذه المقالة إلى بيان نظرية أبي سليمان الخطابي في إعجاز القرآن الكريم وتدرسها دراسة موضوعية، كما تمعن النظر في أنماط الإعجاز عند الخطابي مع التركيز على شرح إشكاليات الجاحدين والرد على الملحدين بالبراهين والحجج، واستخدم الباحث منهجي التأريخي والتحليلي في هذا البحث، ويوصي الباحث الإخوة أن يهتموا بهذه الحقائق وفهمها فهما جيدا مناسبا خوفا من حيل المستشرقين لهدم كلام الله وتحريفه عن طريق شبهاتهم ومحاولة الالتباس لأبناء المسلمين.

Abstract

The Holy Quran was a great miracle of the Prophet's mission, challenging humanity and leaving the ancient and modern scholars unable to produce its equivalent. Imam Al-Khattabi is one of the meticulous scholars of Arabic rhetoric, who has a solid foundation in all sciences of Arabic rhetoric. He exerted great effort and produced outstanding works that highlighted the Quranic miracle. This article aims to explain Imam Al-Khattabi's

theory on the miracle of the Holy Quran and study it objectively. It also examines the patterns of the miracle according to Al-Khattabi, focusing on explaining the problems raised by the skeptics and responding to the atheists with evidence and arguments. The researcher used the historical and analytical methods in this study and recommends that scholars pay attention to understanding these facts properly, fearing the plots of Orientalists to demolish and distort the word of God through their doubts and attempts to confuse Muslims.

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد

قد شاء الله أن أحرز القدامى فصل الصيف في بيان ما أشكل على الناس في بعض الآيات القرآنية لفظا ومعنى، وفصلو القول عن إعجاز القرآن العظيم بفصاحته وبلاغته التي تحدّى بها الملحدين من الجن والإنس " قل لإن اجتمعت الإنس والجن ألا أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا"

فالإعجاز القرآني يتمثل في ثلاثة أمور: الأول إعجازه من حيث ألفاظه وتراكيبه وبلاغته، فهو يجمع المعاني العظيمة الكثيرة بأجمل لفظ وأخصر عبارة، وقد تحدى الله العرب البلغاء الفصحاء مجتمعين مع الجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فعجز كلٌّ عن إتيان بمثله .والثاني :الحقائق العلمية الحديثة التي أخبر عنها منذ قديم وتوصل علماء الفلك والطبيعة إلى بعضها في هذا العصر . الثالث :هو الإعجاز التأثير النفسيي. ولذلك يدوم ويبقى بل يخلد إعجازه خلود الدهر،

وقد بين السابقون بآرائهم الناضجة وأفكارهم السليمة تعالجون مشكلات الملحدين في تصحيح أوهامهم الخطيرة لإعجاز القرآن، فألفوا فيه كتبا عديدة، تنقذهم من ظلمات الوهم إلى نور اليقين .فمن هؤلاء العلماء علامة الخطابي رحمه الله تعالى حيث نظر في هذه القضية عموما وفي القرآن الكريم خصوصا. ولهذا يتمحور موضوع هذا البحث علام يلي:

-مفهوم إعجاز القرآن وأنواعه

-نبذة يسيرة عن حياة الإمام الخطابي.

-مكانته العلمية وإنتاجاته الدنينية والأدبية.

-الإمام الخطابي ومنهجه في بيان إعجاز القرآن

-أهم الموضوعات المدروسة في قضية الإعجاز .

-نظرية الخطابي في إعجاز القرآن: دراسة موضوعية.

-الخاتمة.

المحور الأول: مفهوم إعجاز القرآن وأنواعه

الإعجاز في معناه اللغوي : هي لفظة أشتُقت من أعجز، يُعجز، إعجازاً. وإذا أعجزَ فلانٌ أي سَبق ولم يُدرك، وأعجز الشيئ فلاناً يعني: فاته ولم يدركه، وأعجزه بمعنى جعله عاجزا. وأما إعجاز القرآن في المعجم هو معانيه البليغة بأبلغ الأساليب مما يُعجِز عنه الناس. (الوسيط) .

فالإعجاز والمعجزة في اللغة من عجز، والعجز ضد القدرة، وعجز عن الأمر إذا قصر عنه.

أما معناه الاصطلاحي

والإعجاز في الاصطلاح هو الشيء الخارق للعادة المقترن بالتحدي وغير القابل للنقد والنقض والمعارضة. أو هو أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم من المعارضة يظهره الله على يد رسله. (مصطفى مسلم، 1416هـ/1996م، 14،)

والإعجاز القرآني مصطلح يدل على: قصور الإنس والجن عن أن يأتوا بمثل القرآن الكريم أو بسورةٍ من مثلهِ.

أقسام الإعجاز القرآني:

مما ليس فيه النزاع عند أهل العلم والمعرفة أن الإعجاز القرآني تتعدد أنواعه وتتنوع لتشمل العديد من المواضيع فمنها: (محمد الحياني، إنترنت، 2020م)

١- الإعجاز البياني، وهو قدرة القرآن الكريم على إيصال المعاني والرسائل المختلفة بوضوح وبلاغة يعجز البشر عن الإتيان بمثلها.

٢- الإعجاز العلمي هو إخبار القرآن الكريم بالحقائق العلمية المختلفة كعلوم الفضاء والبحار والجبال وغيرها والتي لم يكن ممكنا إدراكها في زمن نزول القرآن ولم يتم إثباتها إلا بالعلم الحديث

٣- الإعجاز التشريعي هو سمو ودقة التشريعات والمبادئ التي جاء بها القرآن الكريم وتميزها عن ما دونها من التشريعات بطريقة يستحيل على البشر الإتيان بها.

٤- الإعجاز الغيبي ويُقصد به إشارة القرآن الكريم لأمور غيبية لها علاقة بالماضي أو الحاضر أو المستقبل يستحيل على البشر التنبؤ بها.

المبحث الثاني: نبذة يسيرة عن حياة الخطابي

أبو سليمان حَمْد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي الخطابي (ابن خلكان، د ت : 214) وقد كان المترجم عنه مشهوراً بالخطابي، ونسب الاسم إلى جده الخطاب. وقيل: إنه من نسل الصحابي زيد بن الخطاب، (الأسنوي، 2002م، 368) إلا المؤرخ ابن كثير ذالشافعيهب إلى القول بعدم ثبوت ذلك.(ابن كثير، د ت: 100).

ولد أبو سليمان الخطابي في مدينة بست في القديم وهي لشكر كاه حاليًا، وهي مدينة تقع في أفغانستان وكان عاصمة لولاية هلمند،

وبُستَ تعني بالفارسية :(محل العسكر). وهي التي ذكرها أبو سليمان الخطابي في بيتيه(الذهبي، انترنت، 2/يونيو/2017م)

وما غربة الإنسان في شقة النوى ## ولكنهـا والله في عـدم الشكل

وإني غريـــب **ابن** بست وأهلها ## وإن كان فيها أسرتي وبها أهلي

وكان ميلاد الخطابي رحمه الله في اليوم السابع من شهر رجب سنة 319 هـ الموافق 931م في شهر يوليو.

أخذ أبو سليمان الخطابي العلم عن علماء بلده، ثم ارتحل وطوّف طالبًا ومجتهدا لتحصيل في العلم والمعرفة فذهب إلى بغداد والبصرة ومكة وخراسان وبلاد ما وراء النهر، وتفقه على المذهب الشافعي. وقد شاء الله أن بدأت رحلته العلمية من مسقط رأسه (بُسْتَ) وكذلك قدّر القدير أن انتبهت إلى تلك المدينة.

عقيدته: لا يشك العلماء في أن علامة الخطابي الشافعي مذهبا ولكن اختلفوا في عقيدته، فقد نسبه البعض إلى المذهب السلفي ونسبه البعض الآخر إلى المذهب الأشعري.

القول الأول : استدل القائلون بأن الخطابي كان سلفياً بأنه أثبت صفة العلو حيث قال: (فدل ما تلوناه من الآي على أن الله سبحانه في السماء مستوٍ على العرش، **ولو** كان بكل مكان لم يكن لهذا التخصيص معنى ولا فيه فائدة، وقد جرت عادة المسلمين خاصتهم وعامتهم بأن يدعوا ربهم عند الابتهال والرغبة إليه ويرفعوا أيديهم إلى السماء، وذلك لاستفاضة العلم عندهم بأن ربهم المدعو في السماء سبحانه.) (الجوزية، 1450هـ،: 26).

القول الثاني: واستدل القائلون بأنه كان أشعرياً (انتزنت، /19/أغسطس/ 200م) بقوله عند تفسير قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾: «أي قدرته على طيها، وسهولة الأمر في جمعها.)

ونقل عن ابن تيمية رحمه الله تعالى رجوع الإمام الخطابي عن موافقة الإمام الأشعري وذلك بتأليفه كتاب (الغنية عن الكلام و أهله)

حيث يقول في مجموع الفتاوى: (أبو سليمان الخطابي في رسالته المشهورة في " الغنية عن الكلام وأهله قال : " فأما ما سألت عنه من الصفات وما جاء منها في الكتاب والسنة فإن مذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها ونفي الكيفية والتشبيه عنها، وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله وحققها قوم من المثبتين فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف وإنما القصد في سلوك

الطريقة المستقيمة بين الأمرين ودين الله تعالى بين الغالي فيه والجافي والمقصر عنه.... (ابن تيمية، 1425هـ/ 2004م ج 5، 85)

قال الحافظ الفقيه المحدث ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى في كتابه العظيم فتح الباري (ابن رجب، 1417هـ/ 1996م، 237) (وكذلك ذكره الخطابي في رسالته في (الغنية عن الكلام وأهله) وهذا يدل على أن ما يؤخذ من كلامه في كثير من كتبه مما يخالف ذلك ويوافق طريقة المتكلمين فقد رجع عنه، فإن نفي كثير من الصفات إنما هو مبني على ثبوت هذه الطريقة.

أساتذته:

– ابن الأعرابي وهو الإمام الزاهد، شيخ الحرم أبو سعيد، أحمد بن محمد بن زياد بن بشر وهو صاحب التصانيف.

– مكرم بن أحمد القاضي، أبو بكر البغدادي البزاز.

– الخُلْدِيّ: جعفر بن محمد بن نصير بن القاسم، أبو محمد الخوّاص المعروف بالخُلْدِيّ، شيخ الصوفية. كان ثقة، صادقاً، ديّناً، فاضلا.

– أبو العباس الأصم: محمد بن يعقوب بن يوسف النيسابوري. نقل الذهبي عن الحاكم: كان محدّث عصره بلا مُدافعة.

تلاميذه :

عثرنا على عدد كثير من أخذوا منه العلم والمعرفة منهم

. أبو حامد الإسفراييني: أحمد بن محمد بن أحمد، شيخ طريقة العراق.

– أبو أحمد الحاكم: محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه الحافظ الكبير.

– أبو ذر: عبد الله بن أحمد بن عبد الله الأنصاري الهروي المالكي،. (تقي الدين، رجب 1437هـ/ مايو 2016م)

وفاته: توفي في مدينة بست في يوم السبت 7 ربيع الآخر سنة 388 هـ، وقد رثاه عدد من العلماء والأدباء، فرثاه أبو منصور الثعالبي قائلا :

انظروا كيف تخُمد الأنوارُ ##. انظروا كيف تَسقُطُ الأقمارُ

انظُرُوا هكذا تزُول الرواسي ## هكذا في الثَّرَى تغيض البحارُ (العلوي، 1997م، : 29)

المحور الثاني: مكانته العلمية وإنتاجاته الدنينية والأدبية:

كان الإمام الخطابي أجزل الله ثوابه عالما موسوعيا، مدققاً ومتعمقاً في العلوم الشريعة واللغوية، وقد ثناه عدد كثير من معاصريه ومدحوه.

فقد قال عنه أبو طاهر السلفي: وأما أبو سليمان الشارح لكتاب أبي داود، فإذا وقف منصف على مصنفاته، واطلع على بديع تصرفاته في مؤلفاته، تحقق إمامته وديانته فيما يورده، وأمانته، وكان قد رحل في الحديث وقراءة العلوم، وطوف، ثم ألف في فنون من العلم، وصنف"(السلفي، د ت، : 21)

وقال عنه الإمام السيوطي رحمه الله تعالى في (طبقات الحفاظ): " الإمام العلامة المفيد المحدّث الرحال . ..... وكان ثقة متثبتا من أوعية العلم".(انترنت، 3/ مارس/ 2015),

ثم وقال أبو المظفر السمعاني في كتاب القواطع : "كان من العلم بمكان عظيم وهو إمام من أئمة السنة صالح للاقتداء به والإصدار عنه".(السمعاني،: 272-273)

و قد ترك للأمة تصانيف مختلفة في مجالات عديدة، إلا أنه كتب في مجال الدين كثيرا. ومن أهم مؤلفاته ما يأتي :

- **كتاب غريب الحديث:** فهو عبارة عن بيان الألفاظ الغامضة البعيدة من الفهم، يورد الإمام الحديث، يتبعه بسنده، وأحياناً يأتي بسند آخر وبرواية أخرى، ثم يُفسِّر الكلمات اللغويَّة، ويؤيد تفسيرها بحديث آخر، أو بعض حديث، أو آية قرآنية، أو بيت من الشعر أو الرَّجَز، وكثيراً ما

يَستطرد، فيشرح الكلمات الغريبة في هذه الشواهد في إفاضة ومقدرة، وإذا كان في الحديث شيء من الفقه سجَّله بعد الشرح. وقد حقّق ذلك الكتاب عبد الكريم إبراهيم الغرباوي أخرج أحاديثه: عبد القيوم عبد رب النبي ونشره دار الفكر – دمشق سنة: ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م عدد الأجزاء: ٣

– **كتاب العزلة**: هذا الكتاب عبارة عن خمسة تأملات تبرز بوضوح وبشكل جلي فلسفة نيقولاى بردياٸف، حيث تناول فيها موقف الفيلسوف الفاجع ومشكلات الفلسفة، وهنا تطرق للحديث عن الفلسفة بين الدين والعلم، والصراع بين الفلسفة والدين والفلسفة والمجتمع، كما تناول أيضًا الفلسفة الشخصية واللاشخصية الناشر: المطبعة السلفية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٩٩ هـ

– **بيان إعجاز القرآن** : وهذا الكتاب مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن طبع الكتاب بمطبعته الثالثة، ١٩٧٦م، وقام بتحقيقه محمد خلف الله، و الدكتور محمد زغلول سلام، ونشر في دار المعارف بمصر .

– معالم السنن: وهو شرح سنن الإمام أبي داود، طبعت طبعته الأولى سنة ١٣٥١ هـ – ١٩٣٢ م، بدأ الخطابي في هذا الكتاب يفسّر ما أشكل من متون ألفاظ الكتاب، وشرح ما استغلق من معانيه، كما أبان وجوه أحكامه، ودلَّ على مواضع الانتزاع والاستنباط من أحاديثه، وكشف عن معاني الفقه المنطوية في ضمنها، كي ينتفع ويستفيد منها الأمة.

– **إصلاح غلط المحدثين**: طبع الكتاب لطبعته الثانية، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م

وحقّقه الدكتور حاتم الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة، وكان كتاب إصلاح غلط المحدثين، ولا زال من كتب المراجع الأساسية في إصلاح غلط الأحاديث من الرواة والمحدثين، ولذا يكثر النقل عنه في شروح كتب الحديث، من ذلك ما تجده في ثنايا شرح الإمام النووي على مسلم، وفي ثنايا تعليقات الإمام ابن حجر على البخاري، إلى غير ذلك من كتب السنة .(الخطابي، 1405 هـ/ 1985م، 7)

المحور الثالث: الإمام الخطابي ومنهجه في بيان إعجاز القرآن:

كان الإمام الخطابي غفر الله له عالماً ومعلِّماً أديباً لغويّاً بل متعمقا في العلوم الشرعية، وكان جلّ مؤلفاته في الشريعة الإسلامية، وهو جِهبِذٌ من جهابذة عصره يعده من أول من نبه على قضية النظم، وبحثها بحثا علميا دقيقا، حينما أبرز عناصر الجمال في العبارة، وأنها تنحصر في ثلاثة أمور: اللفظ، والمعنى الأصلي، ونظوم التأليف للعبارة، وكان لتنبيهه لهذه القضية أثره في الدراسات البلاغية.

أما بنسبة منهجه في بيان إعجاز القرآن الذي يعتبره باكورة من بواكير البلاغة العربية. وقد ذكر الخطابي في مقدمة كتابه سبب تأليفه بأنه وجد أن من تكلموا قبله في إعجاز القرآن قد اختلفت آراؤهم فيه، ولم يكن كلامهم شافيا؛ لتعذر معرفة وجه إعجاز القرآن.(الخطابي، دت،: 27). ولم يكن يذكر المنهج، مع ذلك يمكن استخلاص منهجه فيما يأتي:

– لم يقسم الكتاب إلى أبواب وفصول، وإنما يذكر المسائل ويوردها ثم يبدأ بالكلام عليها وتفصيلها.

– إيراد الشبه والاعتراضات في الموضوعات التي يتكلم عليها ثم يجيب عن ذلك بأدلة نقلية وعقلية.

– يستعمل ألفاظا غريبة تحتاج في فهمها إلى الرجوع للمعاجم اللغوية.

– يكثر من الاستدلال بالشعر القديم الصالح للاستشهاد، دون شعر المحدثين من الشعراء.(الملاح، انترنت، سبتمبر، 2023م).

المحور الرابع: أهم الموضوعات المدروسة في قضية الإعجاز.

إن الموضوعات التي تناول وتكلم عنها الخطابي رحمه الله تعالى محصورة في النقاط التالية:

– الكلام حول إعجاز القرآن.

– تحدي العرب بالقرآن وعجزهم عن مواجهته.

– القول بالصرفة ودلالة آيات القرآن على خلافها.

– القول بأن إعجاز القرآن هو في إخباره عن الغيبيات المستقبلة، وهذا نوع من الإعجاز وليس محصورا فيه.

– القول بأن الإعجاز من جهة البلاغة.

– اختلاف أجناس الكلام ودرجاته في البلاغة، وبلاغة القرآن حازت أعلاها.

– القرآن جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظام وتضمن أحسن المعاني.

– الحذف والاختصار في القرآن.

– تأثير القرآن في النفوس.

المحور الخامس: نظرية الخطابي في إعجاز القرآن: دراسة موضوعية

نظر الخطابي رحمه الله تعالى في قضية الإعجاز القرآني وجعل حديثه يتمحور على نقاط وقضايا يناقشها تلواً بعد تلو.

القضية الأولى: إثبات عجز العرب عن معارضة القرآن الكريم

بيّنَ الخطابي رحمة الله عليه أن هذا العجز من مسلمات التاريخ، فلماذا ترك العرب معارضة القرآن وهم أهل الرياسة في الفصاحة وأصحاب البلاغة ويملكون من أدواتها ما يمكنهم من الإتيان بما يشاؤن من كلام جزل بليغ رصين يماثلون به كلام الله ولكنهما تركوا كل ذلك واتجهوا إلى محاربة القرآن الكريم ومنازلته، مع ذلك وصلوا مرحلة العجز عن يأتوا بمثله ولذا وقد وصفهم الله بالجدل واللدد. فقال سبحانه: "ما ضَرَبوهُ لكَ إلاَّ جَدَلاً بلْ هم قومٌ خَصمون" الزخرف:58] .

وخلاصة القول:

– لقد تحدّى الله العالم قاطبة لا عرباً دون عربٍ ولا قوماً دون قومٍ في حين واحدٍ فعجز الجميع من إتيان مثل ذلك الكتاب.

– لم يقتصر على فترة زمنية معينة بل تجاوز إلى ما يبلغ عشرين عاما وهذا الوقت ليس بقليل.

– فمحاربة العرب القرآن العظيم دليل قاطعي على أنهم عجزوا عن إتيان بمثله.

القضية الثانية : الإعجاز بالصرفة:

ليس القرآن الكريم معجزة بالبيان والبلا

وقد أبطل الخطابي هذه الفكرة وردها إلى أصحابها لأنها تخالف ما جاء في القرآن. وقد أعطوا الفرصة ومنحوا القدرة على التعاون بعضهم بعضا ومع ذلك عجزوا. قال تعالى « قلْ لَئنْ اجْتَمَعَت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتُونَ بمثله ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً [الإسراء:88]

الخلاصة:

– إن.الخطابي رحمة الله عليه لا يقبل رأيهم في الإعجاز بالصرفة عاما.

القضية الثالثة: الإخبار عن الغيوب أو الأمور المستقبلية:

القرآن الكريم معجز بالغيبية كما زعم البعض فقد عرض الخطابي زعمهم : زعمت طائفة أن إعجازه إنما هو فيما يتضمن من الأخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان نحو قوله تعالى:« ألم غُلبت الرومُ في أَدْنَى الأرض وهُمْ من بعد غَلَبهم سَيَغْلبون في بضْع سنين لله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله»أ الروم:1 – 4] . وكقوله سبحانه وتعالى : " قل المختلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد" (الفتح ١٦)

وقد علق الإمام الخطابي على هذا الرأي بقوله: " قلت ولا شك في أن هذا وما أشبهه من أخباره نوع من أنواع إعجازه، ولكنه ليس بالأمر العام الموجودة في كل سورة من سور القرآن، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها، فقال تعالى: "فأتوا بسورة من مثله وادعوا شُهداءَكُمْ من دون الله إن كنتم صادقين" [البقرة:23]، من غير تعيين، فدلّ على أن المعنى فيه غير ما ذهبوا إليه.

ويلاحظ الباحث في هذا المجال أنّ الخطابي حقيقة قد سلّم الجدل في كون الأمور المستقبلية من وجوه الإعجاز القرآني، وفي حين رفض كونها وجها عاما لإعجاز القرآن لشيئين:

أ- وقوعها في بعض السور القرآنية لا جميعها.

ب- وجود بعض الأخبار السابقة في سجيلات الكهان بالكثير إشارة إلى أن القرآن يوافق مع كتب هؤلاء المنكرين وهذا يقلل من قيمة الإعجاز القرآني.

القضية الرابعة: الإعجاز البلاغي

إن الإمام الخطابي قد حاول كل المحاولة أن يعالج هذه القضية (الإعجاز البلاغي) بأمرين رئيسين:

الأمر الأول: بلاغات القرآن الثلاث، وهي بدورها إلى ثلاثة أقسام :

أ – أعلى طبقات الكلام وأرفعه: وذلك هو الكلام البليغ الرصين الجزل.

ب – أوسطه وأقصده: وهو الكلام الفصيح القريب السهل.

ج – أدناه وأقربه: وهو الجائز الطلق المرسْل .

إذا فالكلام كما رأى العلامة الخطابي يقوم علىٰ ثلاثة أركان: اللفظ والمعنىٰ والنظم ، وأنّ التفاوات والتمايز بين طبقات الكلام يتأتّىٰ من هذه الجهات المذكورة، وبقدر الزلل فيها يكون النقص،هلإجادة والتوفيق يبلغ البيان ذِرْوة الفصاحة، ويرتقي إلىٰ أعلىٰ طبقات البلاغة.

فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع من أنواع شعبة.

وبنسبة هذه البيانات التي تفضّل بها الخطابي في تفصيل أجناس الكلام فَهِم كثيرٌ من البلاغيين أن القرآن المجيد تتفاوت درجات بلاغته حيث يوجد عنه ما هو البليغ وما هو الأبلغ، وهذا هو المرأة بالتفاوت في بناء الأسلوب القرآني.

الأمر الثاني : النظم والتأليف:

فالكلام عندالخطابي يقوم على ثلاثة دعائم:

ا- حامل ب- معنى به قائم. ج- الرباط لهما ناظم.

ثم فقال: اعلم بأن القرآن صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف ، مضمناً أصح المعاني .(الخطابي، دت،: 28)

وهذه الأمور الثلاث يستحيل اجتماعها على جهة الكمال في كلام آحاد الناس؛ لأن البشر بطبيعتهم عاجزون عن الإحاطة بالألفاظ التي تنهص بها المعاني كما أنهم عاجزون عن تحقيق الكمال في استواء النظم وشرائطه ، والحال في معالجة المعاني وطرائق بنائها أشد من كلّ ما سبق ؛ بهذا كان القرآن معجزاً وإن كانت حروفه من جنس حروف العرب وألفاظه من ألفاظهم.(عزمي، انترنت 30/يوليو/ 2021م).

القضية الخامسة: سرد الاعتراضات عن عجز العرب

سرد الخطابي الاعتراضات حول العرب عن معارضة القرآن، وناقش الخطابي تلك الآراء وبين زيفها. ورد على هذه الآراء في قولهم : " ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى " وقال الآخر " الفيل ومالفيل، وما أدراك ما الفيل له مشفر طويل ، وذهب أثيل، وما ذلك من خلق ربنا بقليل"

وقد رد بقوله:"فإن كل واحد من هذين الكلامين مع قصور آية، وقصر معانيه خال من أوصاف المعارضات وشروطها، وإنما هو استراق واقتطاع من عرض كلام القرآن واحتذاء لبعض أمثلة نظومه وكلا لن يبلغوا شأوه ولم يصيبوا في شيء من ذلك حذوه".(الخطابي، دت: 57-58).

الخلاصة : وقد يعتذر الخطابي على البشر الإتيان بمثل القرآن لأمور:

- أن علم البشر لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وألفاظها.

- لا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة لتلك الألفاظ.

- لا تكمل معرفتهم استفاء جميع وجوه النظم التي يكون ائتلاف وارتباط بعضها ببعض.(بحيري، دت، :9).

القضية السادسة : الفروق اللغوية:

جاء الإمام الخطابي بنظريته في تنسيق الألفاظ في القرآن الكريم ويتعرّض لكثير من الألفاظ اللغوية المتقاربة في المعنىٰ والدلالة، والتي يحسب أكثر الناس أنها متساوية في الإبانة والغرَض.

ك(الحمد والشكر) و(البخل والشحّ) و(النعت والصفة) و(قعد وجلس) و(وبلىٰ ونعم) و(عن وفي) و(ذاك وذلك) وغيرها من الألفاظ المشتركة في أصل المعنىٰ كثيرة في اللغة، وتنزيل هذه الألفاظ والحروف في موقعها المناسب، علم دقيق يذهل عنه أكثر الناس، ويغفلون عن مواضعه.

نظر فضيلة الخطابي في لفظي (الحمد والشكر) وبيَّن الفروق الفردية بينهما. " ثم قد يتميز الشكر عن الحمد؛ فيكون الحمد ارتداء بمعنى الثناء ولا يكون الشكر إلا على الجزاء،..... .ثم قد يكون الشكر قولا كالحمد ويكون فعلا، كقوله جل وعزّ (اعملوا آل داوود شكرا)، وإذا أردت أن تتبين حقيقة الفرق بينهما اعتبرت كل واحد منهما بضده، وذلك أن ضد الحمد الذم، وضد الشكر الكفران، وقد يكون الحمد على المحبوب والمكروه، ولا يكون الشكر ذإلا على المحبوب. (الخطابي، د ت: 30).

كذلك أثبتت نظريته أنّ الشحّ أشدّ من البخل؛ لقوله تعالىٰ "ومن يُوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون" (السبأ ١٣). استخدم الشح دون البخل لعلوّ مرتبة الأولى من الثانية.

ثم قال الإمام في (النعت والصفة)، " فإن الصفة أعم والنعت أخصّ، وذلك أنك تقول: زيد عاقل حليم، وعمرو جاهل وسفيه، وكذلك تقول؛ زيد أسود ودميم، وعمرو أبيض وجميل ، فيكون ذلك صفة ونعتا لهما، وأما النعت فلا يكاد يطلق إلا فيما لا يزول ولا يتبدل، كالطول والقصر والسواد والبياض ونحوهما من الأمور اللازمة".(الخطابي دت،: 31).

وكذلك تكلّم أيضاً في الجواب عن السؤال يجري استخدام لفظي .(نَعَمْ وبلىٰ) وبيّن أن بينهما فرق هائل؛ لأنّ (نعم) جواب في الاستفهام المثبت، كقوله تعالى: " هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا قالوا نعم" (الأعراف ٤٤)، و(بلىٰ) جواب في الاستفهام المنفيّ، كقوله تعالىٰ (ألسْت بربكم قالوا

بلىٰ) ولو قيل في الجواب هنا (نعم) لفسد المعنىٰ، وتحوّل الكلام عن المقصود من إقرار الإيمان والتوحيد، إلىٰ إقرار الكفر والعصيان.

ومن الفروق الدقيقة في مواقع الحروف، التعبير بـ (في وعن) كقوله تعالىٰ (الذين هم عن صلاتهم ساهون)، ولو قيل: (في) لدخَل الجميع تحت العقاب والتهديد الذي توعّدت به السورة الكريمة في قوله (ويل للمصلّين).

و يعتبر أبو سليمان الخطابي كما لاحظ الباحث أنه من الأئمة الذين أنكروا وجود الترادف في القرآن العظيم ولذا دعا إلى معرفة الفروق الفردية بين الألفاظ العربية في القرآن وكذلك نبه بأنّ هذه غير كافية للوقوف على إعجاز القرآن؛ لأن الكلام كثيراً ما يحتوي الدلالتبن: دلالة الأقوال ودلالة الأحوال حيث يحتاج إلى نظام ورابط. و القرآن قد صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني.

ثم استطاع الخطابي أن يدقق النظر في بعض الشبهات التي قد تعترض عقول القاصرين عن فهم لغة القرآن الكريم ومقاصده أو الذين يعمدون إلىٰ إثارة الشبهات فيطرحونها في طريق العوام من الناس حتىٰ يقع الشكّ والارتياب في كتاب الله تعالىٰ.

– ومن هذه الشبهات التعبير بلفظ (هلَك) في قوله تعالىٰ "هلك عنىٰ سلطانية" بدلا من زال فالهلاك يكون في الأعيان والأشخاص (كهلك زيد), أما السلطان معنىٰ فلا يصحّ فيه الهلاك.

– ومنها,: زعمهم في قوله تعالىٰ (والذين هم للزكاة فاعلون) ولا أحد من الناس يقول فعل فلانٌ الزكاة، وإنما يقولون زكّىٰ الرجلُ ماله أو أدّىٰ زكاة ماله.

فلقد ردّ علامة الخطابي على هذه الزعمات، وأمّا قوله تعالىٰ {هلكَ عنّي سُلطانية} وقد زعموا أن الأولىٰ والأفصح أن يقول (ذهب أو زال) ونحوهما لأنّ الهلاك يكون للأعيان والذوات والسلطان معنىٰ من المعاني لا يصح فيه لفظ (هلَك) لكنّ الخطّابي ردّ باطلهم بأنّ لفظ الاستعارة (هلك) أبلغ من لفظ الحقيقة.

كما رد زعمهم في قوله تعالىٰ {والذين هم للزكاة فاعلون} وكان الأولىٰ –في زعمهم– أن يقول (يؤدون أو يعطون) ونحوهما فإن لفظ القرآن أبلغ لأنه أراد أن تكون الزكاة فعلا تاما لهم يزاولونه طوال حياتهم وهذا المعنىٰ لا يستفاد علىٰ وجه الكمال إلا بهذه العبارة. (عزمي، انترنت 30/يوليو/ 2021م)

وكذلك حلل وشرح بعض شبهاتهم في مسألة الحذف وزيادة بعض الحروف بزعمهم ولا معنىٰ لها كقوله تعالىٰ (ومن يُرد فيه بإلحادٍ بظلم) وقوله (ولم يعْيَ بخلقهن بِقادر) والباء لا موضع لها هنا.

والعرب قد تزيد بعض الحروف وتلغي معناها لإرادة التوكيد والإبلاغ وبهذا نزل القرآن الكريم كزيادة حرف ''الباء'' في قوله (بإلحاد بظلم) وكزيادة حرف ''لا'' في قوله تعالىٰ {لا أقسم بهذا البلد} والمعنىٰ أقسم.

القضية السابعة : الإعجاز التأثيري أو النفسي أو الروحي.

وقد عدّ الخطابي تأثير القرآن في النفس نوعا من أنواع الإعجاز القرآني حيث لا يلتفت إليه سابقوه في بيان إعجاز القرآن

« قلت: في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم؛ وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس؛ فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه. تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها (الخطابي، دت،:70).

ثم ضرب المثال لإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه خرج وهو يريد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فسار إلى دار أخته وهي تقرأ سورة طه، فلما وقع في سمعه لم يلبث أن آمن رضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين.

وكذلك الجنان يتعجبون لما سمعموا القرآن فقالوا « إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به". وكل هذا وذاك يدلّ على عظمة القرآن وإعجازه.

المحور السادس: الخاتمة:

إن القرآن الكريم معجزته خالدة خلود الدهر، باقية حتى يرث الله الأرض ومن عليها، بخلاف المعجزات الحسية الوقتية التي تنتهي وتنقضي بانتهاء وقتها وزمنها. وقد عجز الأقاصي والأداني من إتيان مثل هذا القرآن الكريم، لأمرين:

– إثبات أنّ ذلك القرآن العظيم حقّ من الله سبحانه وتعالى لا غيره الضعفاء.

– إثبات صدق نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأنه رسول الله الذي أيّده ربّ الخلائق كلها بهذه المعجزة الخالدة خلود الدهر.

– نظر الإمام الخطابي إلى مجهودات سابقيه في بيان الإعجاز القرآني فرأى فيه قصور من عدم بلوغ المقصد، فشمّر إلى تصبيف كتابه يعالج ويبيّن زعماتهم الناقصة في إعجاز القرآن الكريم.

– وقد استفادت الدراسات الأدبية والنقدية قديما وحديثا من كلام الإمام الخطّابي –رحمه الله تعالىٰ– في هذا الباب الذي لفت إليه وتنبه كثير من الدارسين إلىٰ العناية بالنصوص الأدبية والشعرية ومحاولة تفسيرها تفسيرا نفسيا بالإضافة إلىٰ التفسيرات اللغوية والسياقية.

المراجع والمصادر

- ابن خلكان، أحمد بن محمد، (د ت) **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: احسان عباس، لا. ط، الناشر: دار صادر ببيروت.
- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، (1425ه/2004م) **الفتاوى الحموية الكبرى**، تحقيق: د. حميد بن عبد المحسن،التويجري، الناشر: دار الصميعي- رياض، ج/ 5، نسخة المكتبة الشاملة.

الخطابي، (1405 ه/ 1985م) **إصلاح غلط المحدثين**، ط/ 2، الناشر: مؤسسة الرسالة.

- الأسنوي، عبد الرحيم بن الحسن بن علي الشافعي،(2002م)، **طبقات الشافعية** ، تحقيق:كمال الدين الحوت، ط/١، الناشر: دار الكتب العلمية ، ج/١.

- إنترنت، (رجب 1437ه / مايو 2016م)، حمد تقي الدين، رابطة العلماء السوريين islmsyria.com

- مصطفى مسلم، مسلم، (1416ه/1996م)، **مباحث في إعجاز القرآن**، دار المسلم للنشر والتوزيع.

- السيوطي، جلال الدين (25يناير2009 م) **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

– الجوزية، ابن القيم شمس الدين أبو عبد الله ،(١٤١٥م)، **حاشية ابن القيم على سنن أبي داؤد**، ط/٢, ، دار الكتب العلمية بيروت، ج/١٣.

- إنترنت، (2020م)، محمد الحياني، **الإعجاز في القرآن، تعريفه، أنواعه والحكمة منه** ، ar.assabile.com 2020م)

– إنترنت، (19 أغسطس 20)، **المسائل المتعلقة بالأسماء الحسنى عند الأشاعرة**، نسخة محفوظة موقع الدرر السنية

– العلوي، أبو عبد الرحمن الحسن بن عبد الرحمن ، (١٩٩٧م)، **كتاب الإمام الخطابي ومنهجه في العقيدة**، تحقيق: الشيخ حمّاد بن محمد الأنصاري، ط/١، – دار الوطن.

– الخطابي،وآخون (د ت)، **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن** ، تحقيق: محمد خلف الله أحمد و د. محمد زغلول، ط/٣، الناشر ، دار المعارف بمصر.

– انترنت، الملاح، عمر ياسين، (سبتمبر، 2023م)، **وجوه الإعجاز البياني عند الإمام الخطابي**، مجلة كلية العلوم الإسلامية بالموصل المجلد السابع.

- إنترنت الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، **سير أعلام النبلاء**، نسخة محفوظة في موقع واي بال مشين

– إنترنت، (30 / يوليو/ 2021م)، عزمي عبد البديع، **في ظلال رسالة الإمام الخطابي: بيان إعجاز القرآن**،

- السمعاني، أبو المظفر، (د ت)، **قواطع الأدلة في الأصول**، تحقيق: محمد حسن إسماعيل الشافعي، ط/1، الناشر: دار الكتب العلمية، ببيروت، ج/2.

- السلفي، الحافظ أبو طاهر، (د ت)، **مقدمة معالم السنن**، ح/2.

- هنادي، بحيري (د ت)، **بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان الخطابي** لا. ط

– ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي الدمشقي، (1996 - 1417)، **فتح الباري**، تحقيق: طارق عوض الله، الناشر: دار ابن الجوزي ج/ 7

– الخطابي، حمد بن محمد الخطابي البستي أبو سليمان (١٣٩٩ هـ) **العزلة**، ط/ 2, الناشر: دار ابن كثير.

– ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي الشافعي، (6/ مايو/ 2009م)، | **طبقات الشافعية**، لا.ط الناشر: دار المدار الإسلامي.